بلاغة السُّؤال في القرآن

(أسلوب "يَسْأَلُونَكَ" نموذجًا)

د/ أحمد تمَّام سليمان.

عضو هيئة تدريس البلاغة والنَّقد-

قسم اللُّغة العربيَّة- كلِّيَّة الآداب-

جامعة بني سويف- مصر.

الكلمات المفتاحيَّة:

القرآن الكريم- البلاغة العربيَّة- أسلوب السُّؤال- يَسْأَلُونَكَ.

المقدِّمة:

العلم كَنْزٌ خَبِيءٌ مفتاحه السُّؤال، والعلم كالميزان إحدى كِفَّتَيْهِ السُّؤال وَكِفَّتُهُ الأخرى الجواب، ولقد دفع القرآن الكريم أتباعه إلى العلم، وحثَّ أسلوبه البليغ على السُّؤال، كما في قوله -تعالى-: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية 59]، وقوله -تعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النَّحل: الآية 43]، واختار القرآن الكريم للعلماء أدقَّ الأوصاف؛ فـ(الخبير) هو الَّذي لا تنقصه التَّجارب، و(أهل الذِّكر) هم أهل الاختصاص.

ومن المقترَح أن تنهض هذه القراءة الوصفيَّة التَّحليليَّة على جانبيْنِ:

الجانب النَّظريّ: يُعْنَى بتتبُّع بعض أدبيَّات السُّؤال في التُّراث العربيّ.

الجانب التَّطبيقيّ: يُعْنَى بإحصاء أسلوب (يَسْأَلُونَكَ) في القرآن الكريم وتحليله بلاغيًّا.

أوَّلًا: أدبيَّات السُّؤال في التُّراث العربيّ:

كما تُبْنَى النَّتائج على مقدِّماتها، تُبْنَى الأجوبة على أسئلتها؛ لسلامة بنائها اللُّغويّ من جهةٍ، وقبول مضمونها المعرفيّ من جهةٍ أخرى، خاصَّةً في مقام الجدل والحِجَاج، حيث يكون تحقُّق السَّلامة اللُّغويَّة وقبول المضمون المعرفيّ، أَلْزَمَ للخصم بالدَّليل والحُجَّة، وَأَدْخَلَ في الاستمالة والإقناع، لدرجةٍ قد ترفع من الرُّدود إلى منزلة الأجوبة الْمُسْكِتَةِ.

وفي تعريف الاستفهام يقول أبو يعقوبٍ السَّكَّاكيُّ (ت 626هـ/ 1229م): "الاستفهام لطلب حصولٍ في الذِّهن؛ والمطلوب حصوله في الذِّهن إمَّا أن يكون حُكْمًا بشيءٍ على شيءٍ، أو لا يكون، والأوَّل هو التَّصديق، ويُمتنع انفكاكه من تصوُّر الطَّرفيْن، والثَّاني هو التَّصوُّر، ولا يُمتنع انفكاكه من التَّصديق"⁰، كما يوضِّح **أبو الحسن الشَّريف الجرجانيُّ** (ت 816هـ/ 1413م) أنَّ الاستفهام استعلامٌ عمَّا في ضمير المخاطَب، حيث يقول: "هو طلب حصول صورة الشَّيء في الذِّهن، فإن كانت تلك الصُّورة وقوع نسبةٍ بين الشَّيئيْنِ، أو لا وقوعها، فحصولها هو التَّصديق، وإلَّا فهو التَّصوُّر"⁰.

والفرق بين (التَّصديق) و(التَّصوُّر) أن "يتراوح المطلوب في بنية الاستفهام بين الدِّلالة الكلِّيَّة والدِّلالة الجزئيَّة؛ فإذا كان المطلوب إدراك وقوع نسبةٍ أو علاقةٍ بين أمريْنِ، أو عدم وقوعها، فإنَّ حصوله يُسمَّى بـ(التَّصديق)، وعلاقة التَّصديق تشمل الدِّلالة الكلِّيَّة للجملة، وإذا كان المطلوب تحصيل صورة جزءٍ من أجزاء الجملة؛ المسند إليه أو المسند أو أحد المتعلِّقات، فإنَّ حصوله يُسمَّى بـ(التَّصوُّر)، وهو مختصٌّ بدلالةٍ جزئيَّةٍ في الجملة"⁰.

والعناصر اللُّغويَّة للاستفهام تنقسم إلى حروفٍ وأسماءٍ؛ فحرفا الاستفهام هما (الهمزة) و(هل)، وكلاهما غير مختصٍّ فيدخل على الأسماء والأفعال، ثمَّ عناصر الاستفهام الاسميَّة، وهي بمعنى الأسماء والظُّروف، **والأشياء المسؤول عنها تسعةٌ**، هي: (هل) في البحث عن الوجود، و(ما) أنواع الموجودات، و(كيف) أحوالها، و(كم) عددها، و(متى) زمنها، و(أين) مكانها، و(أيُّ) الفصل بينها، و(مَنْ) أشخاصها، و(لِمَ) عِلَلُهَا، كما نجد (أيَّان) متضمِّنةً معنى متى، إضافةً إلى دلالة التَّفخيم، كذلك نجد (أنَّى) تجمع بين عدَّة معانٍ، بمعنى كيف ومن أين، والسِّياق هو الَّذي يحدِّد المراد، وكلُّها تشكِّل مفاتيح طرح السُّؤال وانطلاقة حركيَّة الجدل بين السَّائل والمجيب، أو بين المتجادِليْنِ، **وقد عُنِيَ النُّحاة بأقسامها ومواضعها، وَعُنِيَ**

البلاغيُّون بدلالاتها وجماليَّاتها.

ويكون **الاستفهام الحقيقيُّ** بطلب الفهم لشيءٍ لم يتقدَّم للمتكلِّم به علمٌ حتَّى يحصل له، ويبدو أنَّ العرب اهتمَّتْ باستعمال أسلوب الاستفهام، فأخرجَتْهُ عن حقيقته إلى **مجازاتٍ متنوّعةٍ**، فيما **نقل جلال الدِّين عبد الرَّحمن السُّيوطيُّ** (ت 911هـ/ 1505م)، **عن أبي عبد الله شمس الدِّين بن الصَّائغ** (ت 776هـ/ 1374م)، قوله: "توسَّعَتِ العرب فأخرجَتِ الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ، أو أشربَتْهُ تلك المعاني"()، وألَّف ابن الصَّائغ رسالته: "مقدِّمةٌ في سرِّ الألفاظ المتقدِّمة"، توقَّف فيها كثيرًا عند مواضع الاستفهام ودلالاته البلاغيَّة، وذكرها **حاجي خليفة** (ت 1067هـ/ 1657م)، وأكثر السُّيوطيُّ من نقولها.

وقد يخرج الاستفهام من الحقيقة إلى المجاز لأربعين وجهًا فيما قرَّره بعض البلاغيِّين()، **كأبي عبد الله بن قيِّم الجوزيَّة** (ت 751هـ/ 1350م)، إذ يكون استفهام المتكلِّم العالِم بالشَّيء؛ لأغراضٍ بلاغيَّةٍ هي: الإثبات، والإخبار، والاستبطاء، والاستبعاد، والاسترشاد، والافتخار، والاكتفاء، والأمر، والإنكار، والإياس، والإيناس، والتَّأكيد، والتَّبكيت، والتَّجاهُل، والتَّحذير، والتَّحضيض، والتَّحقير، والتَّذكير، والتَّرغيب، والتَّسهيل (أو التَّخفيف)، والتَّسوية، والتَّشويق، والتَّعجُّب (أو التَّعجيب)، والتَّعظيم، والتَّفجُّع، والتَّفخيم، والتَّقرير، والتَّكثير، والتَّمنِّي، والتَّنبيه، والتَّهديد، والتَّهكُّم (أو الاستهزاء)، والتَّهويل (أو التَّخويف)، والتَّوبيخ (أو التَّقريع)، والدُّعاء، والعتاب، والعَرْض، والنَّفي، والنَّهي، والوعيد.

وتبدَّى استخدام بعض الباحثين للسُّؤال والاستفهام بوصفهما مصطلحيْنِ مترادفيْنِ، كما يمكن القول بأنَّ العلاقة بين المصطلحيْنِ هي علاقة الكلِّ والجزء، فالاستفهام جزءٌ من السُّؤال، وبالاستقراء تراءى للباحث **أنَّ ثمَّة فارقًا بين السُّؤال والاستفهام**؛ فالسُّؤال مرتبطٌ بالفكرة أو المضمون المعرفيِّ؛ لذا يشيع مصطلحه في بيئة الفلاسفة، والاستفهام مرتبطٌ بالأداة أو صيغة الأداء؛ لذا يشيع مصطلحه في بيئة النُّحاة، كذلك يشيع استخدام المصطلحيْنِ في بيئة البلاغيِّين؛ لأنَّها تدرس دلالات الاستفهام الحقيقيِّ، وتمعن في دلالات خروج الاستفهام عن مقتضى الظَّاهر، وإبراز الأغراض البلاغيَّة للاستفهام المجازيِّ، والَّتي تتنوَّع بتنوُّع السِّياقات المختلفة وأدواتها المتعدِّدة، فالبلاغيّون يبحثون عن جماليَّات المضامين المعرفيَّة، وجماليَّات أدوات المعرفة المستخدمة في البحث عنها.

ومفهوم "السُّؤال والجواب" تنوَّعَتْ مصطلحاته في البلاغة العربيَّة؛ فشرحه **ابن قيِّم الجوزيَّة**

قائلًا: "هو أن يحكي كلامًا بـ(قال)، ثمَّ يجيبه بـ(قال) أيضًا"()، وهو كثير الورود في القرآن الكريم، كما في حوار كليم الله موسى –عليه السَّلام– مع بني إسرائيل، في قوله –تعالى–: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ* قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟ قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ* قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا؟ قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ* قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ* قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا، قَالُوا: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآيات 67– 71].

كما ورد الحوار في الشِّعر الجاهليِّ كقول **امرئ القيس بن حُجْرٍ الْكِنْدِيّ** في معلَّقته:

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ ** فَقَالَتْ: لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي

فَقُلْتُ لَهَا: سِيرِي وَأَرْخِي زِمَامَهُ ** وَلَا تَمْنَعِينَا مِنْ جَنَاكِ الْمُعَلَّلِ

وشرحه **رشيد الدِّين الْوَطْوَاطُ** (ت 573هـ/ 1177م) قائلًا: "تكون هذه الصَّنعة بأن يَرِدَ في البيت أو البيتيْنِ سؤالٌ وجوابٌ...، والفرس يقدِّرون صنعة السُّؤال والجواب حقَّ قدرها، ويستعملونها في القصيدة من مطلعها إلى نهايتها على نسقٍ واحدٍ"()، واستشهد بقول **أبي الطَّيِّب عليِّ بن الحسن الباخرزيّ** (ت 467هـ/ 1075م):

قَدْ قُلْتُ لَهَا: هَجَرْتِنِي مَا الْعِلَّةْ؟ ** صَدَّتْ وَتَمَايَلَتْ وَقَالَتْ: قِلَّةْ!

واستشهد عليه **شهاب الدِّين محمود الحلبيُّ** (ت 725هـ/ 1325م)، **وشهاب الدِّين أحمد بن عبد الوهَّاب النُّويريُّ** (ت 733هـ/ 1333م)، بقول **أبي نوَّاسٍ الحسن بن هانئٍ** (ت 198هـ/ 813م)() في حواره:

لَكَ جِسْمِي تَعِلَّهْ ** فَدَمِي لِمْ تُحِلُّهْ؟

قَالَ: إِنْ كُنْتُ مَالِكًا ** فَلِيَ الْأَمْرُ كُلُّهْ!

ولعلَّ الفعل (قال) –الأوَّل– المسنَد إلى ضمير المتكلِّم (التَّاء) مقدَّرٌ؛ بـ(قُلْتُ: لَكَ جِسْمِي..).

كما أطلق بعض البلاغيّين على "السُّؤال والجواب" مصطلح "المراجَعة"، وعرَّفه تقيُّ الدِّين أبو بكر عليُّ بن حجَّة الحمويُّ (ت 837هـ/ 1433م)، قائلًا: "ومنهم من سمَّى هذا النَّوع –أعني المراجَعة– السُّؤال والجواب، وهو أن يحكي المتكلِّم مراجعةً في القول، ومحاورةً في الحديث بينه وبين غيره، بأوجز عبارةٍ وأرشق سبكٍ وألطف معنًى وأسهل لفظٍ، إمَّا في بيتٍ واحدٍ أو في أبياتٍ"()، وأنشد من **بديعيَّته:**

قَالَ: اصْطَبِرْ، قُلْتُ: صَبْرِي مَا يُرَاجِعُنِي

قَالَ: احْتَمِلْ، قُلْتُ: مَنْ يَقْوَى بِصَدِّهِمِ

والفعل الجدليُّ والحِجَاجِيُّ –عامَّةً– ليس استدلالًا على حقائقَ مثبَتةٍ لا يرقى إليها الشَّكُّ، ولا هو بحثٌ منطقيٌّ يفضي إلى نتائجَ بَدَهِيَّةٍ، وإنَّما له نصيبٌ من الشَّكِّ والخلاف والغموض، مؤثِّرٌ في اختيار الْحُجَجِ وعرضها وترتيبها، والفرق قائمٌ بين ضربيْنِ من المقدِّمات؛ مقدِّماتٍ يقينيَّةٍ: تؤسَّس على الضَّروريَّات وَالْبَدَهِيَّاتِ، وتفضي إلى نتائجَ يقينيَّةٍ، ومقدِّماتٍ ظنِّيَّةٍ: تنقسم على ضربيْنِ؛ مشهوراتٍ يشترك في اعتقادها الجمهور، ومسلَّماتٍ يختصُّ باعتقادها الأفراد().

وفنُّ الجدل هو تلك العلاقة التَّوَاشُجِيَّةُ بين طرح السُّؤال والإجابة عنه، فالسُّؤال ناهضٌ على باعثٍ ومنطقٍ ومنهجٍ؛ ليجد في الإجابة هدفًا قد تَغَيَّاهُ السَّائل، فيشكِّل السُّؤال والإجابة –معًا– رؤيةً للمتلقِّي، من شأنها أن تفتح باب التَّأويل.

ويوضِّح أبو الوليد بن رشدٍ (ت 595هـ/ 1198م) في ثنايا شرحه كتاب الجدل لأرسطو أنَّ "الْمُجِيدَ للسُّؤال هو الَّذي يضطرُّ المجيب إلى أن يسلِّم له ما أثبته عليه، أو يجحد المشهورات الَّتي سلَّمها"()، فالسُّؤال الجيِّد –إذن– ممَّا يحمل المجيب على الإذعان له والإجابة عنه.

كما يوضِّح ابن رشدٍ()، أنَّه ينبغي للسَّائل أن يعلم أوضاعًا يعسر إبطالها؛ لعسر الْحُجَجِ الَّتي تناقضها وعسر معاندتها، وهي أربعة أصنافٍ: مبادئ المعارف الأُوَلِ في الصَّنائع، والأمور المتأخِّرة البعيدة عن المبدأ الأوَّل، كقولنا: هل النَّفس باقيةٌ أم لا؟ والأشياء القريبة من المبدأ، والأشياء الَّتي يُعبَّر عنها باسمٍ مشترَكٍ أو اسمٍ مستعارٍ.

والعلَّة هي مناط السُّؤال، ويقرِّر أبو الحسين بن وهبٍ الكاتب (ت 335هـ/ 946م) أنَّه "ليس

يقع الجدال والحُجَّة إلَّا في العلَّة، ولا يجب الحقُّ والباطل إلَّا فيها"، ويعقِّب عبد الله البهلول قائلًا: "ينظِّم ابن وهبٍ عمليَّة السُّؤال والجواب، بجعل الاستئذان شرطًا للسَّائل، والإذن حُجَّةً على المجيب، وما لم يُرَاعَ هذا الشَّرط، أُعفي المجيب من الجواب، من دون أن يُنسب إلى الانقطاع أو المحاجزة، أو يُوصف بالعجز والتَّقصير، ويوظِّف ابن وهبٍ هذا الضَّرب من الحوار؛ لدفع عمليَّة التَّواصُل لا لتعطيلها، ولإنتاج المعرفة لا للاكتفاء بتقويضها"().

ويحدِّد ابن وهبٍ() مجال العلَّة، بمبرِّراتها وحدودها:

فمبرِّرات العلَّة لإقرار الخصم وإلزامه، حيث يقول: "طلب العلَّة يكون على وجهيْنِ: إمَّا أن تطلبها وأنتَ لا تعلمها؛ لتعلمها، وإمَّا أن تطلبها وأنتَ تعلمها؛ ليقرَّ لكَ بها، وليس لكَ أن تجادل أحدًا في حقٍّ يدَّعيه، إلَّا بعد مسألته عن العلَّة فيما ادَّعاه فيه، فإن كان علمكَ بعلَّته قد تقدَّم في شهرة مذهبه، فالأحوط أن تقرِّره بما بنى عليه أمره، لئلَّا يجحد بعض ما ينتحله أهل مذهبه، إذا وقف عليه الكلام، ويدَّعي أنَّه مخالفهم فيه، فإن أمنتَ ذلك منه، فلا عليكَ أن تجادله، وإن لم تقرِّره بعلَّته".

وحدود العلَّة لرفض الجواب ووقف الجدال، حيث يقول: "اثنان لا يلزمكَ منهما سؤالٌ، ولا يجب لهما عليكَ جوابٌ؛ أحدهما: مَنْ سألكَ عن العلَّة في شيءٍ ادَّعيتَه، فأخبرتَه بها، وهي ممَّا يجوز أن يُعلَّل ذلك الشَّيء بمثله، فطالبكَ بعلَّة العلَّة، ثمَّ كذلك إلى ما لا نهاية له، والآخَر: مَنْ أراد مناقضتكَ في مذهبكَ، ولم ينصِّب لنفسه مذهبًا، يجب له عليكَ فيه بمخالفتكَ إيَّاه المخاصمة، فليس تلزمكَ له حُجَّةٌ في ذلك، ولا يجب له عليكَ فيه سؤالٌ".

ويحاول عبد الله البهلول حصر مجال الجدل، وإثناءه عن السَّفسطة، قائلًا: "إنَّ شرط الانتماء المذهبيِّ في الجدل، يبرِّره حرص النَّاقد على ضمان الإفادة، ورغبته في حماية الجدل من ضروب السَّفسطة، والخروج عمَّا أُريد به في الأصل، وبهذا الاعتبار تنحصر دائرة الجدل، فلا تجري في كلِّ موضوعٍ، ولا تجري بين كلِّ الأشخاص، ولا تتمُّ في جميع الظُّروف والأحوال، إنَّها محاولةٌ لتعقُّل الجدل؛ انتصارًا للمنطق، وتقليلًا من شأن الخطابة والسَّفسطة، في معناها الشَّائع الَّذي عُرِفَتْ به في أوساط اليونان وعند العرب المسلمين، بما هي تغليبٌ للمنفعة على الحقيقة، وسعيٌ إلى الظَّفر في المعارك الكلاميَّة، دون اعتبارٍ للوسائل"().

والسُّؤال بمنزلة البحر الهادر، والإجابة بمنزلة الشَّاطئ الهادئ، **وعلى قدر عمق السُّؤال يكون**

الإبحار، فهناك من السَّائلين مَنْ تعمَّقوا في تجاربهم، حتَّى قبعوا في أسئلتهم لشدَّة ما وجدوا، فكفاهم عشقُهم عمقَ أسئلتهم عن أن يرتحلوا إلى شاطئ إجابةٍ؛ مخافة أن تكون الإجابة نهاية التَّجربة، ولعلَّ لذَّة السُّؤال هذه تتبدَّى في المناظَرات، حيث تكون المراوَحة بين الخصميْنِ بقصد إفحام أحدهما غريمَه وفضِّ أنصاره من حوله، هي في الوقت ذاته إحدى تجلّيات تَمَاهِي السَّائل مع موضوعه وتعمُّقه في قضيَّته.

وتتجلَّى أهمِّيَّة السُّؤال بتوظيفه في طيَّات الأمور ذات الشَّأن، فإنَّ الله –تعالى– بيَّن أهوال يوم القيامة، وجمعَتْهَا سورة التَّكوير، وهي: (تكوير الشَّمس، وانكدار النُّجوم، وتسيير الجبال، وتعطيل العِشار، وحشر الوحوش، وتسجير البحار، وتزويج النُّفوس، وسؤال الموءودة، ونشر الصُّحف، وكشط السَّماء، وتسعير الجحيم، وإزلاف الجنَّة)، وعبَّر عنها القرآن الكريم بأسلوب الشَّرط، وأداته (إذا)، المكرَّرة بحرف العطف (الواو)، الَّذي يفيد مطلق التَّساوي في الحكم، **فبتحقُّق هذه العلامات جميعًا يقع يوم القيامة**، ويكون جواب الشَّرط: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [سورة التَّكوير: الآية 14]، وفي ثنايا هذه الأهوال يبزغ نجم السُّؤال؛ ليختصَّ بجرم الْوَأْدِ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [سورة التَّكوير: الآيتان 8– 9]، فالأصل اللُّغويُّ (وَأَدَ– يَئِدُ– وَأْدًا وَوَأْدَةً)، مأخوذٌ من الثِّقَل، كما في قوله –تعالى–: ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية 255]، والموءودة: المثقَلة بالتُّراب حتَّى الموت، فهي المدفونة حيَّةً، فمن قبيح عادات العرب في جاهليَّتها أن كانوا يحفرون للبنت حفرةً، ويلقونها فيها، ويهيلون عليها التُّراب حتَّى تموت، فعاب الله عليهم سوء فعلتهم، إذ كان الواحد منهم يقتل ابنته ويغذو كلبه!

والأشهر في قراءة الآية الكريمة لدى جمهور قرَّاء الأمصار[1]**، هو روايتها بالبناء للمجهول:** (وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ؟)، أي: سأل اللهُ الموءودةَ عن وائدها بأيِّ ذنبٍ قتلها، ورواية البناء للمجهول أبلغ؛ إرعابًا للوائد، فإذا وجد القاتلُ المقتولَ يُسأل، وقع في روعه ما باله هو؟! كما في قوله –تعالى–: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة القصص: الآية 78]، **وإن رُوِيَتِ الآية بالبناء للمعلوم:** كقراءة أبي الضُّحى مسلم بن صبيحٍ (وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سَأَلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ؟)، أي: سألَتِ الموءودة وائدَهَا بأيِّ ذنبٍ قتلها، وهي بمعنى طلبَتْ بدمائها، إذ لمَّا وُئِدَتِ البنت بغير ذنبٍ جَنَتْهُ، فقد توجَّه السُّؤال إلى وائدها تبكيتًا له على ما جَنَاهُ من ذنبٍ عظيمٍ، **وقد تُؤَوَّل الآية على الحكاية**، مثل: قال محمَّدٌ: إنِّي كاتبٌ، وقال محمَّدٌ: إنَّه كاتبٌ، فالكتابة له على الوجهيْنِ، الأوَّل قولٌ على لسانه والثَّاني حكايةٌ عنه، وبالقياس فقد تُقرأ الآية بالبناء للمجهول: (بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ؟)، وبالبناء للمعلوم: (بِأَيِّ ذَنْبٍ قَتَلْتَ؟)، مخاطِبة وائدَهَا، **ولعلَّ**

هذه التَّاء تتحمَّل قراءتيْنِ أخرييْنِ؛ كضمير متكلّمٍ (بِأَيّ ذَنْبٍ قُتِلْتُ؟)، وكضمير مخاطَبٍ (بِأَيّ ذَنْبٍ قُتِلْتِ؟)، كذلك قد تكون جملة: (بِأَيّ ذَنْبٍ) بمعنييْنِ؛ الأوَّل إنشائيَّةٌ: استفهامٌ إنكاريٌّ عن الذَّنب الَّذي اقترفَتْهُ البنت لتُدفن بسببه حيَّةً، والثَّاني خبريَّةٌ: لإفادة النَّفي بمعنى بغير ذنبٍ، فإنَّ توجُّه الطِّفلة الموءودة بالسُّؤال أو توجيه السُّؤال إليها، يُعَدُّ أمرًا عجيبًا في سياق الآية، إذ كانت في الدُّنيا حديثة عهدٍ بها، فلم تَقْوَ على الكلام بعدُ، فأنطقها الله سائلةً أو مجيبةً؛ لتعظيم الجرم الَّذي عليها وقع.

وقد ختم **الشَّاعر أبو مسلمٍ البهلانيُّ** (ت 1339هـ/ 1920م) ديوانه بذكر **أدوات الاستفهام** جميعها؛ لبيان تنزيه الذَّات الإلهيَّة بما اتَّصَفَتْ به من صفات الكمال والجلال والجمال، عمَّا اعْتَرَى سائر الموجودات من نقصٍ، وذلك عقب قصيدته الَّتي سمَّاها **"برهان الاستقامة"**، قائلًا[1]:

مَتَى كَيْفَ كَمْ هَلْ مَا وَمَنْ أَيٌّ أَيْنَ لِمَ ** بِذِي التِّسْعِ فَاحْفَظْهَا عَنِ اللهِ لَا تَسَلْ

(مَتَى) وَقْتُ ظَرْفٍ وَالظُّرُوفُ حَوَادِثٌ ** وَمَوْلَايَ مِنْ قَبْلِ الْحَوَادِثِ لَمْ يَزَلْ

وَ(كَيْفَ) عَنِ الْأَحْوَالِ جَاءَ سُؤَالُهُ ** وَعَزَّ عَنِ الْأَحْوَالِ فِي وَصْفِهِ وَجَلّ

وَ(كَمْ) صِيغَةٌ تَأْتِي عَلَى مُتَعَدِّدٍ ** وَوَحْدَةُ مَوْلَانَا وُجُوبٌ لِمَنْ عَقَلْ

وَ(هَلْ) تَطْلُبُ التَّصْدِيقَ وَهْوَ مُلَازِمٌ ** لِشَكٍّ وَمَا فِي اللهِ شَكٌّ فَخَلِّ هَلْ

وَ(مَا) تَطْلُبُ التَّفْصِيلَ عَنْ ذِي حَقِيقَةٍ ** وَعِلْمٌ بِذَاتِ اللهِ لِلْخَلْقِ مَا احْتَمَلْ

وَ(مَنْ) تَطْلُبُ التَّمْيِيزَ لِلْعَيْنِ خَارِجًا ** وَذَلِكَ تَشْبِيهٌ تَعَالَى عَنِ الْمَثَلْ

وَ(أَيٌّ) لِتَشْخِيصِ الْمُشَارِكِ غَيْرَهُ ** بِأَمْرٍ عُمُومِيٍّ كَـ"أَيُّهُمَا أَجَلّ"

وَ(أَيْنَ) مَحَلٌّ قَابِلٌ مُتَحَيِّزًا ** وَمَا صِفَةُ اللهِ التَّحَيُّزُ فِي مَحَلّ

وَ(لِمَ) بَعْدَ كَسْرِ اللَّامِ فَتْحَةُ مِيمِهَا ** سُؤَالٌ عَنِ التَّعْلِيلِ جَلَّ عَنِ الْعِلَلْ

فَقَدِّسْ كَمَالَ اللهِ عَنْهَا فَإِنَّهَا ** صِفَاتٌ بِهَا الْمَخْلُوقُ فِي نَقْصِهِ اعْتُقِلْ

ثانيًا: أسلوب (يَسْأَلُونَكَ) في القرآن الكريم رؤيةٌ بلاغيَّةٌ إحصائيَّةٌ:

تكرَّر ورود أسلوب (يَسْأَلُونَكَ) في أربعة عشر موضعًا، هي على التَّرتيب المصحفيّ:

قوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: الآية 189]، وقوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [سورة البقرة: الآية 215]، وقوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾ [سورة البقرة: الآية 217]، وقوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [سورة البقرة: الآية 219]، وقوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية 219]، وقوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [سورة البقرة: الآية 220]، وقوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ [سورة البقرة: الآية 222]، وقوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾ [سورة المائدة: الآية 4]، وقوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية 187]، وقوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ للهِ والرَّسولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: الآية 1]، وقوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية 85]، وقوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية 83]، وقوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [سورة طه: الآية 105]، اقترن في الجواب حرف العطف (الفاء) بالفعل (قُلْ)، وقوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا* فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا* إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا* إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا* كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [سورة النّازعات: الآيات 42– 46].

وورد في القرآن الكريم **أسلوب (يَسْأَلُونَكَ)**[5]؛ وهو الفعل المضارع (يسألُ)، المرفوع بـ(ثبوت النُّون)

9

لاتِّصاله بـ(واو الجماعة) فهو من الأفعال الخمسة، والمسند إلى ضمير النَّصب المتحرِّك (الكاف)، والَّذي يعود على النَّبيّ محمَّدٍ –صلَّى الله عليه وسلَّم–، ويبدأ الله –تعالى– بهذا التَّركيب **كلامًا مُسْتَأْنَفًا أو موضوعًا جديدًا غير معطوفٍ على ما سبقه**، كقوله –تعالى– عن ظاهرةٍ فلكيَّةٍ هي **منازل القمر**: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: الآية 189]، فأجابهم عن فوائده فيما يُعرف بـ"**الأسلوب الحكيم**" أو "**أسلوب الحكيم**"، وهي إشارةٌ إلى أنَّ الأولى بالصَّحابة الكرام أن يسألوا نبيَّهم الكريم عن فائدة الأهلَّة في عباداتهم ومعاملاتهم، بوصفها وسائلَ لتوقيت الأحكام، بدلًا من أن يسألوه عنها بوصفها أجْرَامًا سماويَّةً، تُولد وتزداد وتكتمل ثمَّ تنقص وتختفي.

وقوله –تعالى– عن الجانب الماليّ في **الإنفاق والصَّدقة**: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [سورة البقرة: الآية 215]، فقد سألوه عن طبيعة ما ينفقون، فأجابهم عن مسالك الإنفاق المتنوّعة، إشارةً إلى أنَّ هذا هو الأنجع ليكون موضعًا للسُّؤال. وقوله –تعالى– عن الظَّرف الزَّمنيّ **للحرب**: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾ [سورة البقرة: الآية 217]. وقوله –تعالى– عن **الحلال والحرام**: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾ [سورة المائدة: الآية 4]، وعادةً ما يتصدَّر فعلُ الأمر (قُلْ) الجواب.

وتبدو بلاغة هذا التَّركيب القرآنيّ الأخَّاذ، فيما جعله **يمثِّل "براعة استهلالٍ"**، حيث توجَّه بالسُّؤال عن **الأنفال** في صدر سورة سُمِّيَتْ باسمها، في قوله –تعالى-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ للهِ والرَّسولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: الآية 1].

كما ورد في القرآن الكريم أسلوب (يَسْأَلُونَكَ)، بالفعل المضارع الَّذي يبدأ الله –تعالى– به **كلامًا مُسْتَأْنَفًا أو موضوعًا جديدًا غير معطوفٍ على ما سبقه**، فالموضوع السَّابق كقوله –تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية 218]، عقبها يستأنف الله –تعالى– الكلام بموضوعٍ جديدٍ، هو التَّمهيد لقضيَّةٍ تحتاج إلى توجيهٍ ثمَّ حسمٍ هي تحريم **الخمر والميسر**، فيقول –تعالى-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [سورة البقرة: الآية 219].

وورد في القرآن الكريم **أسلوب (وَيَسْأَلُونَكَ)**، بزيادة حرف العطف (الواو)، في تَتِمَّةِ هذه الآية حيث يقول –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾، والعطف في الآية التَّالية لها فيقول –تعالى– عن فئةٍ اجتماعيَّةٍ تفتقر إلى التَّكافل، وهم **اليتامى**: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [سورة البقرة: الآية 220]، والعطف في السِّياق الَّذي يليه فيقول –تعالى– عن الجانب الصِّحِّيِّ وما يتعلَّق به من أمور الطَّهارة والنَّظافة، وهو **الْحَيْضُ**: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ [سورة البقرة: الآية 222]؛ وتوالي العطف هنا لمعرفة الأحكام الشَّرعيَّة وتفصيل الأوامر والنَّواهي.

وقد تُستهلُّ الآية القرآنيَّة **بالفعل المضارع مقترنًا بواو العطف (وَيَسْأَلُونَكَ)**، دون أن يُسبق بـ(يَسْأَلُونَكَ) –كما أوضحنا في سورة البقرة– وإنَّما يكون العطف على موضوعاتٍ سبق ذكرها في سياق السُّورة، مثل قوله –تعالى– عن أمرٍ خَالَجَ أفهامَهُ الالتباسُ، وَأَبْهَمَ آراءَهُ الالتياثُ، هو **الرُّوح**: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية 85]، والَّتي سُبِقَتْ بحديث القرآن عن انتصار الحقّ واندحار الباطل، وتردُّد الإنسان بين الخير والشَّرِّ، وتقلُّبه بين النِّعمة والنِّقمة، وكلٌّ يعمل على شاكلته، ثمَّ أتى الحديث عن الرُّوح.

وقوله –تعالى– عن التَّاريخ السَّحيق وما خَالَجَهُ من انتحالٍ وأساطير: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية 83]، والَّتي سُبقت بحديث القرآن عن صحبة نبيِّ الله موسى –عليه السَّلام– للخضر، وكشف الخضر له عن أسراره حول السَّفينة والغلام والجدار؛ لينتقل السَّرد القصصيُّ إلى عِظَةٍ أخرى في قصَّة **ذي القرنيْن**.

أمَّا في قوله –تعالى– عن ظاهرةٍ كونيَّةٍ تمتاز بالعظمة، هي **الجبال**: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [سورة طه: الآية 105]، **فقد اقترن في الجواب حرف العطف (الفاء) بالفعل (قُلْ)**؛ لإفادة السُّرعة، وسياق الآيات عن مشاهد يوم القيامة، حيث يُحشر المؤمن والكافر، والبارُّ والفاجر، فلابدَّ من أن يُظْهِرَ الله –تعالى– عجائب صنعته وطلاقة قدرته؛ لذلك نجد القرائن اللَّفظيَّة تؤكِّد أنَّ هذا هو مقام التَّحدِّي، والنَّاجي مَنْ أَذْعَنَ له، إذ يقول –تعالى–: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا* يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا* وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [سورة طه:

الآيات 108- 111].

كذلك ورد في القرآن الكريم **أسلوب (يَسْأَلُونَكَ) مكرَّرًا، دون دخول حرف العطف (الواو) على الفعل الثَّاني**، في قوله –تعالى– عن **الغيب**: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية 187]؛ وإسقاط العطف لأنَّ الجهة غير مُنْفَكَّةٍ، فالمسؤول عنه في التَّركيبيْنِ واحدٌ هو **(السَّاعة)**، ولا يُعطف الشَّيء على نفسه، أمَّا التَّكرير فوارِدٌ لإفادته التَّأكيد.

وتبدو بلاغة هذا التَّركيب القرآنيِّ اللَّافت، فيما جعله يُعَدُّ "**حسن خاتمةٍ**"، في قوله –تعالى–: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [سورة النَّازعات: الآيات 42- 46]؛ ولأنَّ **(السَّاعة)** غيبٌ اختصَّ الله –تعالى– ذاته العليَّة بمعرفته، فلم يَأْتِ فعل الأمر (قُلْ) متصدِّرًا الجواب، بل ظلَّ التَّفصيل يتوالى من عالِمِ الغيب وحده، مذكِّرًا مَنْ آمن بها، ومنذِرًا مَنْ أعرض عنها، كما استخدم القرآن اسم الاستفهام (أيَّان) بدلًا من (متى)، وإن كانا قد اتَّفقا في السُّؤال عن الزَّمن، فقد امتازَ أيَّان بدلالة التَّفخيم للمسؤول عنه.

كما يُعَدُّ ما بين الموضعيْنِ –الأعراف والنَّازعات– تكرارًا، **والتَّكرار أحد عناصر تماسُك النَّصِّ**، حيث اتَّفقا في الصَّدْرِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾، واختلفا في الْعَجُزِ؛ لبيان أهمِّيَّة الغيب الَّذي استأثر الخالق به، كما في تذييل قوله –تعالى–: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة الزُّخرف: الآية 85]، فتذييل الآية الكريمة مُؤَسَّسٌ على **التَّقديم والتَّأخير**؛ بتقديم الخبر شبه الجملة (الظَّرف/ عندَهُ)، على المبتدإِ (الْمُعَرَّفِ بالإضافة/ علمُ السَّاعةِ)، ثمَّ بتقديم شبه الجملة مُتَعَلِّقِ الفعل (الجارِّ والمجرور/ إليْهِ)، على الْمُسْنَدِ (الفعل المضارع/ ترجعُونَ)، والتَّقديم في الحاليْنِ جائزٌ، ودلالته الاختصاص.

كذلك استعمل القرآن الكريم ذلك **التَّركيب البليغ: ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾**؛ لتفصيل الغيب في قوله –تعالى–: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: الآية 34]، فـ(يوم القيامة، ونزول المطر،

12

ومحتوى الأرحام، ورزق الغد، ومكان الموت)، كلُّها غيوبٌ على رأسها (السَّاعة) لجديرةٌ بأن يُصَاغَ لها السُّؤال، بل ويُكرَّر استعماله، **فالعرب إذا اهتمَّتْ بأمرٍ توسَّعَتْ في التَّعبير عنه**؛ كأسماء السَّاعة أو يوم القيامة، بوصفها عَلَمًا مفرَدًا أو مركَّبًا إضافيًّا، وإذا نظرنا بعين الاستقراء إلى الآيات القرآنيَّة والأحاديث النَّبويَّة، لمسنا التَّوسُّع في الأسماء، **ولعلَّ أشهرها:** يوم البعث، ويوم التَّغابُنِ، ويوم التَّلَاقِ، ويوم التَّنَادِ، ويوم الجمع، ويوم الحساب، ويوم الحسرة، ويوم الحشر، ويوم الخروج، ويوم الخلود، ويوم الدِّين، ويوم الفصل، ويوم الميعاد، ويوم الوعيد، والآزفة، والحاقَّة، والصَّاخَّة، والطَّامَّة، والقارعة، والواقعة... وغيرها.

إنَّ **رتابة النَّصِّ الأدبيِّ** –أحيانًا– تدفع القارئ إلى الإعراض عنه أو قراءته قراءةً سطحيَّةً؛ لما خالجه من شعورٍ بالملل، فيعمل المبدِع على لفت انتباه المتلقِّي، ببعض المنبِّهات الأسلوبيَّة ومنها "**كسر التَّوقُّع**"، ولا يُقصد به كسر المعيار العامِّ للموروث اللُّغويِّ بمستوياته المتعدِّدة (من الصَّوت إلى الدِّلالة)؛ لأنَّ هذا هو العدول (أو الانحراف أو الانزياح) عن معيارٍ لأجل دلالةٍ، وإنَّما يكون كسر التَّوقُّع (أو المتوقَّع) وفق ما ورد في أسلوب النَّصِّ، حيث إنَّ النَّصَّ ذاته هو الَّذي يمنح القارئ النُّموذج المعتمَد، وهو الَّذي يدهشه بكسر ذلك النُّموذج أيضًا.

ممَّا يحيلنا إلى مصطلح "**السِّياق الأسلوبيّ**" الَّذي يعرِّفه **ميكائيل ريفاتير** بأنَّه "نموذجٌ لسانيٌّ مقطوعٌ بواسطة عنصرٍ غير متوقَّعٍ، والتَّناقُض النَّاتج عن هذا التَّداخُل هو المنبِّه الأسلوبيُّ"[٥]، ويرى **حميد لحمداني** أنَّ أهمِّيَّة وضع معاييرَ لتحليل الأسلوب –عند ريفاتير– تكمن في تجاوُز مفهوم المعيار، الَّذي تُقاس على أساسه انزياحات اللُّغة، واللُّغة الأدبيَّة بإجراءاتها الأسلوبيَّة قادرةٌ على خلق سياقاتٍ خاصَّةٍ، أو معاييرَ وخرقها في الوقت ذاته، ممَّا يؤدِّي إلى إضعاف سلطة المعيار العامِّ في تقدير انزياحات اللُّغة، المسؤولة عن خلق السِّمات الأسلوبيَّة في النَّصِّ الأدبيِّ[٦].

وورود التَّركيب اللُّغويّ على شاكلةٍ أسلوبيَّةٍ معيَّنةٍ في النَّصِّ، ثمَّ يكون الخروج عنها هو كسرٌ لتوقُّع المتلقِّي، وبما أنَّ القرآن الكريم نسيجٌ واحدٌ، ويُعامل معاملة أيِّ نصٍّ أدبيٍّ –مع امتياز قداسته– يُراد متابعة مسلكه الأسلوبيّ، فلا يمكن إلَّا بقراءته مرتَّبًا وفق التَّرتيب الَّذي أراده منشئه؛ للوقوف على كسر التَّوقُّع في أسلوبه.

ويُعدُّ "**المتشابه اللَّفظيُّ**" أحد المكوِّنات الأسلوبيَّة الَّتي تكشف عن كسر التَّوقُّع، و"يُقصد به

ورود تركيبيْنِ (أو أكثرَ) يتطابقان لفظًا، إلَّا في موضعٍ بعينه، كالاختلاف بالزِّيادة أو النُّقصان، فمثلًا الأسلوب القرآنيُّ المستخدَم للتَّعبير عن السُّؤال والجواب تكرَّر في أكثرَ من موضعٍ"، ودلَّل **أحمد جمال الدِّين** على ذلك بأربع آياتٍ، هي قوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾، وقوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾، وقوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، وقوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، وفيها ورد الجواب المصدَّر بـ(قل) بدون دخول (فاء التَّعقيب والسُّرعة)، وهذا يُعَدُّ المكوِّن الأسلوبيَّ المعتمَد، أمَّا في قوله –تعالى–: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾، فقد اقترن الجواب بـ(الفاء)، ممَّا يشكِّل كسرًا لتوقُّع القارئ، فيثير انتباهه ويدفعه إلى التَّساؤل عن المقصديَّة.

فيرى أنَّ كلَّ جوابٍ في الآيات الأربع الأولى [وهي على التَّرتيب؛ سورة البقرة: الآيتان 220–222، وسورة الإسراء: الآية 85، وسورة الكهف: الآية 83] **يتَّسم بالوجود الممتدِّ**"، وهي أمورٌ واقعةٌ في الحياة ومعلومةٌ بالمشاهَدة أو الحكاية ويلمس صدقَها الخلقُ؛ فالإصلاح لليتامى ممتدٌّ مادام اليتامى موجودين، وكلُّ إنسانٍ معرَّضٌ أن يكون يتيمًا أو له يتامى، وتحقُّق الأذى ممتدٌّ مادام المحيض موجودًا، وعرف الإنسان أذاه بالفطرة السَّليمة ووسائل العلم، وسرُّ الرُّوح ممتدٌّ مادام بأمر الله، وأجمع الخلق على أنَّ الرُّوح بيد الله وحده لا بيد غيره، وذكر ذي القرنيْنِ ممتدٌّ مادام في زمن الحكي والاعتبار، وبتلاوة القرآن يُذكر ذو القرنيْنِ.

أمَّا **نسف الجبال** [سورة طه: الآية 105] فمع أنَّه أمرٌ لم يقع بعدُ، فإنَّه في يقين كلِّ مؤمنٍ واقعٌ، ووقوعه **ليس ممتدًّا في الزَّمان**، وإنَّما سيكون في الآخرة بمقدار قدرة (كن فيكون)، ففي لمح البصر سينسفها الله –تعالى– فناسب دخولُ (الفاء) سرعةَ الحدث، ويقينيَّة المخاطَب (الرَّسول وأتباعه)، أي: قل يا محمَّد بلا تردُّدٍ ستُنسف الجبال في لمحةٍ لا محالة.

وباستقراء كلِّ آيات (**يَسْأَلُونَكَ.. قُلْ..**) وجدناها تشتمل على ظواهرَ بلاغيَّةٍ كثيرةٍ، منها: "**الأسلوب الحكيم**" أو "**أسلوب الحكيم**"، وهو: "تلقِّي المخاطَب بغير ما يترقَّب، بحمل كلامه على خلاف مراده؛ تنبيهًا على أنَّه الأولى بالقصد"، ووضَّح **ابن عيسى باطاهر** أهمِّيَّته قائلًا: "المتأمِّل في استعمالات هذا الأسلوب يدرك أنَّه أسلوبٌ طريفٌ، تقتضيه مقامات الجدال والحوار، وهو مناسبٌ في شدِّ انتباه الأذهان إلى الكلام، وإمتاع السَّائل بالجواب الذَّكيِّ، وفتح منافذ الإدراك أمامه للتَّأمُّل فيما سِيقَ أمامه من إجاباتٍ

14

واضحةٍ"()، وعدَّد أمثلته فذكر أربعةً من آيات (يَسْأَلُونَكَ)، هي:

قوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾، فقد سأل الصَّحابةُ الرَّسولَ –صلَّى الله عليه وسلَّم– عن الأهلَّة بوصفها مسألةً فلكيَّةً، تبدو صغيرةً حتَّى تكتمل بدورًا، ثمَّ تتضاءل وتأفل، فبيَّن القرآن الكريم أنَّها وسائلُ لمعرفة أوقات العبادات والمعاملات؛ تنبيهًا على أنَّ معرفة هذا هو الأولى. وقوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾، فقد سأل الصَّحابةُ الرَّسولَ –صلَّى الله عليه وسلَّم– عن الشَّيء الَّذي ينفقونه في سبيل الله، فأجابهم القرآن الكريم عن الَّذين ينبغي أن تُوجَّه إليهم النَّفقة، فالَّذين هم أهلٌ للإنفاق عليهم أولى بالسُّؤال عنهم. وقوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، فقد سأل اليهودُ الرَّسولَ –صلَّى الله عليه وسلَّم– عن حقيقة الرُّوح، وكيفيَّة دخولها الأجساد وخروجها منها، فردَّ عليهم القرآن الكريم بأنَّ الرُّوح من علم الله اللَّامحدود مقارنةً بعلمهم المحدود، وأنَّ السُّؤال عمَّا يفيدهم في دنياهم وأخراهم أولى. وقوله –تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾، فقد سأل بعضُ الكفَّارِ الرَّسولَ –صلَّى الله عليه وسلَّم– عن عظمة الجبال، فنبَّههم القرآن الكريم إلى أنَّ مصيرها الزَّوال يوم القيامة، وصحَّح اعتقادهم باستحالة انتهاء العالَم، حيث كان دليلهم هذه الجبال الَّتي يعتقدون أنَّها غير زائلةٍ! فأتى الدَّليل القرآنيُّ مؤكِّدًا أنَّ الله سينسفها ويتركها مستويةً لا نبات فيها ولا بناء.

وقد ظهرَتْ تجلِّيات **أسلوب الحكيم في الحديث النَّبويّ الشَّريف** وفق سياق إحدى آيات (يَسْأَلُونَكَ) أيضًا؛ حيث سأل أعرابيٌّ من البادية الرَّسولَ –صلَّى الله عليه وسلَّم–: "متى السَّاعة؟"، أو "متى قيام السَّاعة؟"، أو "متى السَّاعة قائمةً؟"، وكان مقتضى الظَّاهر أن يجيبه ببيان وقتها، لكنَّه عدل عن هذا المقتضى بقوله: "ويلكَ وما أعددْتَ لها؟"، أو "ويحكَ وما أعددْتَ لها؟"، وسياق الحديث عن علم قيام السَّاعة، وقد أفاض في تحليله على كثرة رواياته **معوَّض الخولي**()، وهو العلم الَّذي اختصَّ الله ذاته العليَّة به، من فحوى قوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية 187].

ولبيان اختصاص الله –تعالى– بعلم السَّاعة فقد عبَّر عنه **بأسلوب القصر** على صورتيْنِ متكرِّرتيْنِ، أولاهما: إنَّما (إنَّ للتَّوكيد وما الكافَّة)، ثانيتهما: الاستثناء المنتقض بنفيٍ (لا للنَّفي وإلَّا للاستثناء)، وعلى مقتضى الظَّاهر يكون السُّؤال: "متى السَّاعة؟"، ويكون الجواب: "علمها عند ربِّي"، أو "علمها عند الله"،

وكان الرَّسول –صلَّى الله عليه وسلَّم– يُسأل عن السَّاعة فلا يجيب، لكنَّه أجاب في هذا الحديث على غير عادته؛ لأنَّ السَّائل من الأعراب، فخشي أن يقول له: لا أدري! فيرتاب، **فأجابه بالمعاريض** من قبيل مراعاة حال المخاطَب.

فجواب الرَّسول –صلَّى الله عليه وسلَّم– عن سؤال الأعرابيّ "متى السَّاعة؟"، بسؤال "وما أعددْتَ لها؟"، بدلًا من أن يجيبه عن ميقاتها كما يقتضي الظَّاهر أدخله في **أسلوب الحكيم**، أو من فحوى قوله –تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا* فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا* إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا* إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا* كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [سورة النَّازعات: الآيات 42– 46]، فعلى مقتضى الظَّاهر يكون السُّؤال: "متى السَّاعة؟"، ويكون الجواب: "فيم أنتَ من ذكراها؟"، حيث **يكون الجواب سؤالًا عن سؤالٍ.**

والجواب من إخراج الكلام خلافًا لمقتضى الظَّاهر، من تلقِّي السَّائل بغير ما يطلب؛ تنبيهًا له على الأولى به أن يهتمّ بغير ذلك، وهو مؤدَّى توجيه الله لرسوله: "إنَّما أنتَ منذِر من يخشاها"، وبذلك **وسَّط الرَّسول –صلَّى الله عليه وسلَّم– بين السُّؤال والجواب سؤالًا وجوابًا آخرَيْن**؛ لينأى عن الجواب المألوف ويطرق بابًا جديدًا للتَّفكُّر، فالسَّائل شغل نفسه بغير المهمّ وهو تعيُّن الوقت، والمجيب لفت نظره إلى الأولى وهو الاستعداد لوقوعها والتَّهيُّؤ لها والتَّزوُّد بالعمل الَّذي ينفعه، وإن كان الجواب يشي بمدى الضِّيق من انصراف السَّائل إلى غير الأحرى أن يلزم نفسه به، فإنَّ بلاغة أسلوب الحكيم تكمن في توجيه عناية السَّائل إلى الأهمّ ممَّا سأل، فكأنَّ المجيب يردُّ على السَّائل بأنَّ الأولى لكَ أن تصرف عنايتكَ إلى الاستكثار من الحسنات استعدادًا للسَّاعة، لا أن تسأل عن توقيتها فهي دانيةٌ!

والنَّبيُّ –صلَّى الله عليه وسلَّم– مأمورٌ **بالسُّؤال عن التَّوراة والإنجيل**؛ حتَّى يطمئنَّ قلبه تجاه رسالته، حال معرفته بالكتب السَّماويَّة السَّابقة على دعوته، حيث يتلقَّى التَّوجيه الإلهيَّ بالسُّؤال في قوله –تعالى–: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [سورة يونس: الآية 94].

ولكي يثبِّت النَّبيُّ –صلَّى الله عليه وسلَّم– **العقيدة الصَّحيحة الَّتي جوهرها التَّوحيد الخالص** في قلوب خصومه، فإنَّه يناظرهم؛ بتبادُل الأسئلة المنطقيَّة، واستحضار الأدلَّة العقليَّة، الَّتي قد تحملهم على

16

الإقرار بما ينكرون، واختار القرآن الكريم أسلوب الشّرط للتّعبير عن المناظَرة وطبيعتها الحجاجيّة، والافتراض المعرفيّ بين المتناظريْن في سؤالٍ مطروحٍ وجوابٍ متوقَّعٍ أو كاسرٍ أفق التّوقُّع.

حيث تكرَّر ورود أسلوب (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ.. لَيَقُولُنَّ..) سبع مرَّاتٍ، هي على التّرتيب المصحفيّ:

قوله –تعالى-: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [سورة التّوبة: الآية 65]، وقوله –تعالى-: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية 61]، وقوله –تعالى-: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية 63]، وقوله –تعالى-: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة لقمان: الآية 25]، وقوله –تعالى-: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة الزُمر: الآية 38]، وقوله –تعالى-: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الزُّخرف: الآية 9]، وقوله –تعالى-: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة الزُّخرف: الآية 87].

الأسلوب من النّاحية التّركيبيّة؛ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ..): (الواو) استئنافيّةٌ، (اللّام) موطِّئةٌ للقسم، (إنْ) شرطيّةٌ جازمةٌ لفعليْن، (سَأَلَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السُّكون في محلِّ جزمِ فعل الشّرط، (التّاء) فاعلٌ، (الهاء) مفعولٌ به، وجملة (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ جملة الشَّرط. **(لَيَقُولُنَّ..)**: (اللّام) لام القسم لقسمٍ مقدَّرٍ، (يَقُولُونَ/ يَقُولُ) فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ وعلامة رفعه ثبوت النُّون المحذوفة لتوالي الأمثال، (الواو) المحذوفة لالتقاء السَّاكنيْن فاعلٌ، (النّون) نون التّوكيد الثّقيلة، وجملة (لَيَقُولُنَّ) لا محلَّ لها جواب القسم، وجواب الشَّرط محذوفٌ دلَّ عليه جواب القسم.

وقد لاحظنا أنَّ الجدل القرآنيَّ اكتفى بإيراد السُّؤال والجواب بأسلوب الشَّرط **(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ.. لَيَقُولُنَّ..)** في ثلاثة مواضعَ، هي: [سورة العنكبوت: الآية 61، وسورة الزُّخرف: الآيتان 9– 87]، بينما امتدَّ الجدل **بإضافة فعل الأمر (قُلْ)** الموجَّه إلى الرَّسول –صلَّى الله عليه وسلَّم– في ثلاثة مواضعَ، هي: [سورة التَّوبة: الآية 65، وسورة العنكبوت: الآية 63، وسورة لقمان: الآية 25]، بل إنَّ بساط الجدل قد أمعن في

17

الامتداد ممَّا استلزم **تكرير فعل الأمر (قُلْ)** مرَّتيْنِ في موضعٍ واحدٍ، هو: [سورة الزُّمر: الآية 38].

وانحصر المضمون المعرفيُّ لهذا الأسلوب في **الجانب العقديّ**؛ للسُّؤال عن خالق السَّماوات والأرض، ومسخِّر الشَّمس والقمر، ومنزِّل الماء من السَّماء، وخالق البشر المأمورين بعبادته وطاعته، والَّذين انقسموا إلى مقرِّين بوحدانيَّته وقيوميَّته، أو منكرين لوجوده وتجلّياته؛ لذا انعقد هذا السُّؤال الافتراضيُّ عن الخالق الجليل، وكان الاحتكام إلى العقل والمنطق في المناظَرة، فخرج الأسلوب أقرب إلى **المذهب الكلاميّ**.

وأخيرًا.. فبالانتهاء من تلك النَّظرة العجلى على أسلوب **(يَسْأَلُونَكَ.. قُلْ..)** في القرآن الكريم، نستطيع بالقياس أن نتلمَّس أسلوب **(يَسْتَفْتُونَكَ.. قُلْ..)**، وهو الفعل المضارع (يستفتي) المرفوع بـ(ثبوت النُّون) لاتِّصاله بـ(واو الجماعة) فهو من الأفعال الخمسة، والمسنَد إلى ضمير النَّصب المتحرِّك (الكاف)، والَّذي يعود على النَّبيِّ محمَّدٍ –صلَّى الله عليه وسلَّم–، والفعل المسبوق بـ(الألف والسِّين والتَّاء) في الماضي، أو بـ(الياء والسِّين والتَّاء) في المضارع، فإنَّه **يفيد الطَّلب**، فـ(يَسْتَفْتُونَكَ) بمعنى يطلبون منكَ الفتوى، والأصل فيها إجابةٌ عن سؤالٍ شرعيّ؛ لذا فهناك وَشيجَةٌ بين الأسلوبيْنِ (السُّؤال والفتوى) لتضمُّنهما معنى الإجابة عن سؤالٍ مطروحٍ، وورد ذلك التَّركيب في سورة النِّساء مرَّتيْنِ واجتمعا في محتوًى معرفيّ واحدٍ هو **الفرائض أو المواريث**:

الموضع الأوَّل في قوله –تعالى–: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [سورة النِّساء: الآية 127]، حيث نزلَتِ الآية في الرَّجل الَّذي تكون عنده يتيمةٌ، وهو وليُّها ووارثها، فيرغب في أن ينكحها؛ لأنَّه يكره أن يزوِّجها رجلًا آخرَ فيشاركه في ماله بما شاركَتْهُ هي، فإذا به يعضلها عنده.

الموضع الثَّاني في قوله –تعالى–: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [سورة النِّساء: الآية 176]، حيث نزلَتِ الآية في الميراث، والكلالة هو الإنسان الَّذي يموت وليس له ولدٌ يرثه.

ومن وَسيعِ الأسلوب القرآنيّ أن يعبِّر عن **السُّؤال بتركيبٍ مُغَايِرٍ، كأسلوب الشَّرط** في قوله –

تعالى-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية 186]، فأصل التَّركيب: (اللهُ قريبٌ)، جملةٌ اسميَّة تفيد الثَّبات والاستقرار، ولمَّا كانت صفة القرب قارَّةً في الذَّات العليَّة لا تنفكُّ عنها، فقد صدَّر الجملة بحرف التَّوكيد (إنَّ)، ويصير اسمها ضميرًا متَّصلًا (ياء المتكلِّم)، ولم يَرِدْ في جواب الشَّرط فعل الأمر (قُلْ) أو (فَقُلْ)؛ لانتفاء الواسطة بين الدَّاعي والمجيب، وإنَّما اقترن الجواب بـ(الفاء) مباشرةً (فإنِّي قريبٌ)؛ لإفادة السُّرعة في استجابة الدُّعوة.

الخاتمة:

كما حثَّ القرآن الكريم على العلم، وأقسم بطرائقه وأدواته، كما في قوله –تعالى-: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: الآية 1]، فالمتتبِّع **للجذر الثُّلاثيِّ (س– ء – ل)**، وتقاليبه اللُّغويَّة وصيغه الصَّرفيَّة، والحقل الدِّلاليّ للسُّؤال، فإنَّه يتوقَّف على التَّنويع الاشتقاقيِّ وما يستتبعه من إنتاج القيم البلاغيَّة، الَّتي انطمرَتْ في طيَّات **الأسلوب القرآنيِّ (يَسْأَلُونَكَ)**، وفقًا لسياقاتها النَّصِّيَّةِ، وغير النَّصِّيَّةِ كالاجتماعيَّة خاصَّةً والحضاريَّة عامَّةً، وما نلمس ظلاله في استنباط الأحكام الشَّرعيَّة، وبناء القواعد المرعيَّة، وما ينظِّم العلاقة بين الفرد والمجتمع، وما يحدد الحقوق والواجبات للرَّاعي والرَّعيَّة، فبالسُّؤال.. تعمر الأكوان، وتُرفع الأركان، وتصحُّ العقائد، وتُفتح المغالِق، وتُزكَّى النُّفوس، وتُكشف الكنوز.

ولقد اهتمَّ هذا البحث بالنَّاحية الإجرائيَّة وحاول استخلاص بعض النِّقاط، أهمُّها:

- الكشف عن فلسفة السُّؤال من خلال أدبيَّاته المتنوِّعة في التُّراث العربيِّ، وتعدُّد مصطلحاته، كـ(السُّؤال والجواب)، و(المراجَعة)، ومناقشة بعض آراء العلماء فيه.
- وإحصاء مواضع السُّؤال بأسلوب (يَسْأَلُونَكَ.. قُلْ..) في القرآن الكريم، وما جرى مجراه، مثل: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ.. لَيَقُولُنَّ..)، و(يَسْتَفْتُونَكَ.. قُلْ..).
- وبيان السِّياقات القرآنيَّة لبناء السُّؤال؛ كورود أسلوب (يَسْأَلُونَكَ) كلامًا مُسْتَأْنَفًا أو موضوعًا جديدًا غير معطوفٍ على ما سبقه، أو وروده مقترِنًا بواو العطف (وَيَسْأَلُونَكَ) دون أن تُسبق الآية بـ(يَسْأَلُونَكَ)، أو وروده مكرَّرًا (يَسْأَلُونَكَ.. يَسْأَلُونَكَ..)، دون دخول واو العطف على الفعل الثَّاني.
- وبيان المضامين المعرفيَّة لأسلوب السُّؤال؛ والَّتي دارَتْ حول: الأهلَّة، والنَّفقة، والحرب، والخمر والميسر، واليتامى، والحيض، والحلال والحرام، والسَّاعة، والأنفال، والرُّوح، وذي القرنيْنِ، والجبال.

19

والكشف عن بلاغة السُّؤال وتقاطعه مع بعض الأساليب البلاغيَّة؛ كأسلوب الحكيم، والمذهب الكلاميّ، والأجوبة الْمُسْكِتَةِ، والشَّرط، والتَّكرار، والتَّقديم والتَّأخير، والقصر، والتَّعريض، وبراعة الاستهلال، وحسن الخاتمة. أو بعض القضايا اللُّغويَّة والنَّقديَّة الحديثة؛ كالمتشابه اللَّفظيّ، والجدل والحِجَاج، وكسر أفق التَّوقُّع.

ϕ